الفصل الخامس

تحقيق الاستقلال القومي
حروب مصر في عهد محمد علي
نظرة عامة في تلك الحروب من الوجهة القومية

إنَّ حروب مصر في عهد محمد علي باشا هي التي مكنتها من تحقيق استقلالها القومي، ولولا تلك الحروب لما تكوَّن ذلك الاستقلال، ولرجعت البلاد إلى عهد الحكم التركي وبقيت زمنًا لا يمكن تقديره ولاية تحكمها تركيا كما كانت تحكم سائر ولايات السلطنة العثمانية، يتعاقب عليها الولاة كل سنة أو سنتين.

ففي ميدان الحروب تكونت الدولة المصرية الحديثة، وحققت استقلالها، وكذلك قضت سنة الله في الأمم أن لا يأتيها استقلالها رغدًا؛ بل تخوض إليه غمار المتاعب والضحايا والآلام تناله بالقوة، وتحافظ عليه بالقوة، وإذا ما تراخت قوة الأمة واعتراها الوهن والضعف، أو تطوحت وركبت متن الشطط، أو تخاذل أبناؤها وتفرقت كلمتهم؛ التوى عليها القصد، واستهدف استقلالها للخطر، ولا يلبث أن تعصف به أطماع الغزاة والمستعمرين، وقضت سُنَّة الله في خلقه أن الدول الفتية لا تتكون ولا تنشأ إلا في ميادين القتال والنضال، وما المعاهدات التي تعترف بوجود الدول الحديثة واستقلالها إلا منظمة ومقررة لنتائج الحروب والانقلابات التي يتحقق فيها ذلك الاستقلال.

فتلك الحروب التي خاضت مصر غمارها في عهد (محمد علي) هي السبيل التي أوصلتها إلى تحقيق استقلالها، وتأليف وحدتها، وحفظ كيانها، وبلوغ مركزها الدولي، والمكانة التي نالتها بين الدول هي ثمرة تلك الحروب أولًا.

على هذا الاعتبار ننظر إلى حروب مصر في عهد محمد علي؛ فهي من الوجهة القومية سبيل الاستقلال الذي نالته في تاريخها الحديث، وما الوقائع والمعارك

والأسماء والحوادث التي تخللتها إلا معالم لهذا السبيل؛ لذلك وجب علينا أن نستعرض هذه الحروب ونتابع وقائعها، ونتبين نتائجها في تكوين مصر المستقلة.

الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧م

إنَّ الحملة الإنجليزية على مصر سنة (١٨٠٧م) كانت أول حرب اشتبكت فيها مصر دفاعًا عن كيانها، وكانت فاتحة سعيدة لحروب مصر في ذلك العصر؛ لأنها انتهت بإخفاق إنجلترا فيما كانت ترمي إليه من احتلال مصر، وقد استوفينا الكلام عن تلك الحرب في الفصل الثاني.

الحرب الوهابية (١٨١١–١٨١٩م)

إنَّ جزيرة العرب هي أول ميدان لحروب مصر الخارجية في عهد محمد علي، وكانت الحرب فيها من أشق الحروب التي خاضت غمارها وأطولها مدى ومن أكثرها ضحايا ومتاعب، جردت مصر في خلالها حملات عدة كلفتها الضحايا الكثيرة في الأرواح والأموال، ولقي فيها الجنود الشدائد والأهوال في قطع المراحل البعيدة المترامية بين الفيافي والقفار، ونالتهم المتاعب والأوصاب؛ من وعورة الطرق، وشدة القيظ، تضطرم به الأرض والسماء، إلى قلة المئونة وندرة المياة وفقدانها في معظم الجهات، إلى محاربة عدو مستبسل بذل النفس والنفيس دفاعًا عن وطنه.

تحملت مصر في الحرب الوهابية خسائر جسيمة، وإن فداحة تلك الخسائر لتدعونا أن نتساءل عن السر في اهتمام محمد علي باشا بخوض غمار تلك الحرب الضروس، وبذل ما اقتضته من الجهود والضحايا، واحتمال أعبائها سنوات عدة متوالية بلا هوادة، ومن غير أن يتردد في متابعتها أو يثنيه عنها ما أصاب الجيش في بعض أدوارها من الهزائم والمهالك؛ بل كان كلما أخفقت حملة جرد الأخرى حتى بلغ النصر والظفر.

نتساءل عن ذلك وخاصة لأن الحرب الوهابية قد تبدوا غير ضرورية ولا لازمة لمصلحة مصر، ولم يخض غمارها إلا استجابة لنداء تركيا؛ فإن حكومة الأستانة ما فتئت في مختلف المناسبات تدعوه إلى تجريد جيوشه لمحاربة الوهابيين، وطلبت إليه ذلك في أواخر ديسمبر سنة (١٨٠٧م) قبل أن يمضي عامان على ولايته؛ إذ ورد إليه فرمان بتجديد ولايته وإسناد منصب الدفتردار (مدير الشئون المالية) إلى ابنه إبراهيم، وتكليفه في الوقت ذاته إرسال الجنود إلى الحجاز لقمع الفتنة الوهابية، وجددت تركيا هذا الطلب، بل ذلك الأمر سنة (١٨٠٨م) ثم سنة (١٨٠٩م)، وكان محمد علي في كل مرة يتعلل باشتغاله بمحاربة المماليك، فلما انتهى من حملته عليهم بالوجة القبلي وعاد إلى القاهرة في سبتمبر سنة (١٨١٠م) ألفى رسولًا من الأستانة يحمل إليه رسالة جديدة تقضي بتكليفه الإسراع في تجريد الجيش لمحاربة الوهابيين، فلم يستطع وقد فرغ من محاربة المماليك أن يتمحل الأعذار القديمة في التأجيل والتسويف، وبادر إلى الاستجابة، وأبدى اهتمامًا كبيرًا بتهيئة معدات الحرب في الحجاز، ومن يومئذ اعتزم السير بالحملة حتى تصل إلى غايتها؛ وهي القضاء على الدولة الوهابية في شبه جزيرة العرب، فما هي إذن مصلحة مصر ومصلحة محمد علي باشا في الإقدام على تلك الحملة الشاقة؟

إنَّ محمد علي لم يكن ليغفل عما بينه وبين تركيا من سوء الظن المتبادل، ولم يغرب عن ذهنه أن حكومة الأستانة سعت غير مرة لتقتلعه من عرش مصر، وأن القوة هي التي ردَّت يدها وحالت دون تحقيق مرادها؛ ولكنه لبى أخيرًا نداءها في الحملة على الحجاز؛ لأنه رأى في خوضه غمار الحرب الوهابية تمكينًا لسلطته ورفعًا لشأنه وشأن مصر وإعلاء لمكانتها.

ذلك أنه لما استفحلت الدعوة الوهابية أنفذت تركيا لإخمادها حملات عدة رجعت بالخيبة والفشل، وتعطلت شعائر الحج، وامتنع ورود عشرات الآلاف من الحجاج من أنحاء الشرق، فتزلزلت هيبة تركيا وأثرت هذه الحالة فيها تأثيرًا كبيرًا،

ووقع الشك في مقدرة السلطان العثماني على الاضطلاع بمهمة «حامي الحرمين الشريفين» تلك التي كانت تجعل لتركيا المقام الممتاز بين الممالك الإسلامية.

فرأى محمد علي أنه إذا نجح حيث أخفقت تركيا واستطاع بقوة جيشه أن يقضي على دولة الوهابيين ويستخلص منهم الأراضي المقدسة، فلا جرم أن يتوطد مركزه وتسمو مكانته حيال تركيا، فلا تعود تفكر في عزله أو تغييره، ولا تستطيع أن تعامله معاملة سائر الولاة الذين كانت تتصرف فيهم بالعزل والنقل؛ بل يدعوها تطور الحوادث إلى أن تعامله معاملة الند للند، أو الحليف للحليف، ويتدرج مركزه من والٍ تابع إلى حاكم مستقل. أضف إلى ذلك أنه إذا لم يلب دعوة السلطان ويتأهب لمحاربة الوهابيين، فإن ذلك يكون مبررًا لعزله، ولم يكن مركزه بعد قد استقر حتى لا يحسب حسابًا لأوامر الأستانة؛ بل كان عليه أن يتقي شرَّها حتى ترسخ دعائم ملكه.

فالحرب الوهابية كانت إذنه وسيلة لتوطيد مركز محمد علي، كما أنها سبيل لرفع شأن مصر، وإعلاء مكانتها، وتمهيدًا لتتبوأ المركز الذي نالته من بعد بين الدول.

وأغلب الظن أن فكرة الانفصال عن تركيا وتحقيق استقلال مصر قد بدأت تملك عليه مشاعره من ذلك العهد، وأنه أخذ يعمل لها من طريق الفتح والحرب، وليس ثمة حرب تعلي مكانة مصر وتنيلها مركزًا ممتازًا وتكسبها عطف الشرق والعالم الإسلامي مثل الحرب الحجازية؛ فقد كان الغرض منها إنقاذ الحرمين الشريفين من حكم فرقة الوهابية، وتجديد ما بين الأمم الإسلامية من الصلات الأدبية والاقتصادية، وإعادة مناسك الحج وتأمين السبيل للحجاج الذين يأتون كل عام من مشارق الأرض ومغاربها.

وإذا رجعت إلى الماضي وتذكرت ما فعله «علي بك الكبير» رئيس المماليك عندما تولى حكم مصر سنة (١٧٦٣م)[1] تجد أنه عندما سعى إلى الاستقلال والتخلص من

(١) انظر: الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» ص٥٨، الطبعة الأولى.

الحكم العثماني وأعلن انفصاله عن تركيا وعزل الوالي، كان أول ما وجه إليه عزمه أن جرد جيوشه على جزيرة العرب وفتح معظمها وبسط نفوذه على الحجاز، فاستحق اللقب الذي أسبغه عليه شريف مكة وهو «سلطان مصر وخاقان البحرين».

فمحمد علي قد خاض غمار الحرب الوهابية لا لمصلحة تركيا؛ بل تثبيتًا لمركزه، وإعلاء لشأن مصر. وقد حققت الأيام صدق نظره؛ إذ عظمت منزلته حيال تركيا خلال الحرب الوهابية وبعد انتهائها، وعلت مكانة مصر الحربية والسياسية، وامتدت سلطتها إلى جزيرة العرب، وانبسطت رفعتها واتسعت حدودها، فإن الجيوش المصرية التي جردها محمد علي لحرب الوهابية لم تنسحب منها بعد كسر الوهابيين، بل ظلت تحتلها وأخذت الحكومة المصرية تبسط سلطانها في أصقاع الجزيرة وتنصب لها الحكام وقواد الجند، كما أن تركيا كأفات محمد علي بإسناد مشيخة الحرم المكي وولاية جدة إلى ابنه إبراهيم، فاتسع فعلًا نطاق مصر، وضمت إليها بلاد الحجاز ونجد والعسير وجزءًا من اليمن، ثم وصلت سيادتها إلى شاطئ الخليج الفارسي؛ أي أن نفوذ مصر قد امتد إلى معظم جزيرة العرب. وظل كذلك إلى أن اضطربت الأحوال السياسية سنة (١٨٤٠م)، واضطرت مصر إلى سحب جنودها كما سيجيء بيانه.

وكان لمحمد علي أغراض أخرى محلية أدركها من الحملة الوهابية، أهمها التخلص من طوائف الجنود الأرناءود والدلاة الذين ألفوا التمرد والشغب، فقد رأيت كيف ازداد طغيانهم وتمردهم حتى صاروا خطرًا على الأمن وعقبة دون استقرار سلطة الحكومة[1]، «فكانت الحملة الوهابية خير فرصة انتهزها محمد علي ليقذف بتلك الطوائف المتمردة إلى الأصقاع النائية من جزيرة العرب، لعله في غيبتهم يستطيع أن يدخل النظام الجديد في الجيش المصري، وقد سعى إلى ذلك فعلًا خلال الحملة الوهابية؛ وإن كانت ظروف الأحوال لم تمكنه من إنفاذ مشروعه، فأرجأه إلى سنة (١٨٢٠م) كما سنذكره في حينه.

(١) انظر: ص٥٨، الطبعة الأولى.

وكذلك كانت الحملة ذريعة لإطلاق الحكومة في فرض ما تشاء من الضرائب والإتاوات من غير أن يجد الشعب مسوغًا للاعتراض عليها؛ فإن حجة محمد علي باشا فيما فرضه أثناء الحملة الوهابية من مختلف الضرائب والإتاوات الفادحة أن الحكومة في حاجة إلى المال لإنفاقه على حرب مقدسة ترمي إلى استرداد الحرمين الشريفين وتأمين سبيل الحج، فهي من هذه الناحية جهاد مفروض، وكذلك الإنفاق عليها.

تلك هي البواعث التي جعلت محمد علي يقدم على تلك الحرب الشاقة.

والآن فلنقل كلمة عن الوهابية ونشأتها، ثم نتكلم بعد ذلك عن الحملة ووقائعها.

الدعوة الوهابية

ظهرت الدعوة الوهابية في جزيرة العرب حوالي منتصف القرن الثامن عشر على يد زعيمها الشيخ «محمد بن عبد الوهاب»، ولذلك نسبت إليه، وسُمي أتباعه وأنصاره الوهابيين.

ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥هـ (١٧٠٣م) في (العُيَيْنة) من بلاد نجد، ونشأ بها وقرأ القرآن وحفظه، وتلقى العلم عن أبيه الذي تولى القضاء في بعض بلدان العارض[١]، وحج إلى بيت الله الحرام وهو بعد في سن الشباب، ثم قصد إلى المدينة المنورة وأقام بها نحو شهرين، ثم عاد إلى بلده واشتغل بدراسة الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وكان حادَّ الفهم، شديد الذكاء، سريع الإدراك والحفظ، قوي الرغبة في العلم، رحل في طلب العلم فقصد إلى البصرة والحجاز مرارًا، وجاء (الحسا) وكانت آهلة بالمشايخ والعلماء، وطالت إقامته بالبصرة يتلقى فيها العلم ويقرأ كثيرًا من كتب الحديث والفقه واللغة؛ فاتسع في كل ذلك، ثم عاد إلى أرضه وموطنه.

كان محمد بن عبد الوهاب حنبلي المذهب، يميل إلى الشدة في التعاليم الدينية، ولا يأخذ بالرُّخص، فاستنكر كثيرًا من البدع الفاشية بين المسلمين ورأى فيها شركًا بالله،

(١) من أقاليم نجد.

فدعا إلى التوحيد وصنَّف فيه كتابًا، وحدَّثته نفسه أن ينقي الدين ويخلصه مما دخله من البدع، فدعا قومه إلى نبذها وطرح كل ما لم يرد في القرآن والسُّنة من الأحكام والتعاليم، والرجوع بالدين إلى فطرته وبساطته الأولى، وقد أخذ دعوته من طريقة الإمام ابن تيمية، فالمذهب الوهابي هو في أصوله المذهب الحنبلي، والفكرة التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب في أصلها وجوهرها فكرة صالحة؛ لكنه غلا فيها وتشدد، حتى صار أساسها تكفير كل من لم يأخذ أخذه ولا يتبع تعاليمه، واعتباره مشركًا بالله، ومن هنا جاءت تسمية الوهابيين للمخالفين لهم (مشركين). ومثل هذه الدعوة قد تصادف نجاحًا وتجد لها الأتباع في بلاد فُطر أهلها على الخشونة والبداوة؛ ولكنها تتعارض ومقتضيات الحضارة والعمران.

فمن تعاليم الوهابية تحريم ليس الحرير وشرب الدخان والتُّنْباك، وكذلك تحريم إقامة المزارات ونصب القباب على القبور واعتبارها مخالفة لأحكام الدين، ثم الدعوة إلى هدمها، وغير ذلك من التعاليم المنطوية على التشدد والغلو. على أن هذا الغلو لم يسئ إلى الدعوة الوهابية بمقدار ما أساء إليها إسراف أنصارها في القسوة وارتكابهم الفظائع مع مخالفيهم في المذهب والعقيدة.

دعا محمد بن عبد الوهاب قومه إلى الأخذ بتعاليمه، فنالت دعوته نجاحًا بين أهل نجد، وأخذ يكسب الأعوان والأنصار خلال عدة من السنوات دون أن تأبه له الحكومة العثمانية، ولكن حدث يومًا أن قدمت إليه امرأة متهمة بالزنى، وثبت عليها التهمة، فأمر برجمها، فقتلت على الفور، ولم تكن هذه العقوبة مما تسيغه النفوس، فأحدثت استياء شديدًا وانتهى نبؤها إلى حاكم (الحسا) التي تمتد سلطته إلى (العيينة)، فأرسل يتهدد الشيخ بالقتل إذا لم يرجع عن طريقته، ولما علم بذلك أنصاره أقبلوا يعرضون عليه أن ينزل بينهم ويكون في حماهم، فرحل إلى مدينة (الدرعية) إذ كان أميرها (محمد بن سعود)، فأعجب الأمير بدعوته واعتنقها، وآوى إليه محمد بن عبد الوهاب.

كانت (الدرعية) من أكبر بلاد نجد، فرأى فيها محمد بن عبد الوهاب خير مثابة لنشر دعوته، وأخذت من ثم تستفيض بين القبائل.

وأعلن الأمير «محمد بن سعود» مناصرته للتعاليم الوهابية، وتعاهد والزعيم على التعاون في نشر الدعوة، على أن يؤيد سيادة الأمير بين العرب (سنة ١١٥٧هـ-١٧٤٤م). ومن يومئذ اتخذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الدرعية) مقرًّا له، وأخذ يبث منها دعوته، وكان يأتي إليه فيها أتباعه ومناصروه يتلقون عنه، وأخذ هو كذلك يوفد الرسل إلى البلاد لنشر الدعوة إلى التوحيد. وأيَّد الأمير محمد بن سعود هذه الدعوة بحد السيف، فدعا القبائل والبلاد المجاورة إلى الأخذ بها أو يقاتلهم، فلم تمض عدة من السنوات حتى عمَّت الدعوة معظم بلاد نجد، وحارب الأمير قبائل عدة كانت تناوئ الوهابية إلى أن توفي سنة (١٧٦٥م).

فخلفه في تلك السنة ابنه الأمير «عبد العزيز بن سعود»، وكان من أشد أنصار الدعوة، فأصابت في عهده نموًّا وانتشارًا، وامتد نفوذه السياسي إلى معظم بلاد نجد وتجاوزها إلى بعض أنحاء الحجاز وأطراف العراق. وتوفي محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) بعد أن قويت دعوته واستفاضت بين القبائل.

وقد حاول شريف مكة «الشريف غالب بن مساعد» أن يصدَّ دعوة الوهابيين ونفوذهم بقوة السيف والقتال، وزحف رجاله على نجد؛ لكنه انهزم أمام قوات عبد العزيز وعاد إلى الحجاز.

وظلت الدعوة بعد وفاة زعيمها ومؤسسها تنمو وتضطرد بفضل تأييد عبد العزيز لها، وتنكيله بالقبائل التي لا تدين بها، فامتد نفوذ الوهابيين إلى ولاية البصرة، وزحفوا على (كربلاء) مثابة الشيعة واستولوا عليها (سنة ١٨٠١م)، وأمعنوا في أهلها قتلًا، ونهبوا المدينة، وهدموا مسجد الحسين بن على رضي الله عنهما، وأخذوا ما في قبته من النفائس والجواهر.

ضجَّ المسلمون في سائر الأقطار -وخاصة الشيعية- من غزوة (كربلاء) وما ارتكبه الوهابيون فيها من الفظائع، فجاء الدرعية شيعيٌّ متنكر واغتال الأمير عبد العزيز وهو قائم يصلي العصر في جامع الدرعية (سنة ١٨٠٣م).

فخلفه ابنه (سعود) في الإمارة، واستمر الوهابيون في قوة ومنعة، ولم يستطع الولاة الترك الغلبة عليهم لا في عهد عبد العزيز ولا في عهد سعود؛ فإن سليمان باشا والي العراق جرد حملة على (الحسا) لمحاربة الوهابيين فعادت الحملة مدحورة.

وصل «سعود بن عبد العزيز» في فتوحاته إلى حدود مسقط، وامتد نفوذه إلى شواطئ الخليج الفارسي، واعتزم فتح الحجاز، فجرد جيوشه على الشريف غالب، وزحف الوهابيون على (الطائف) التي تعد مفتاح مكة فاحتلوها (سنة ١٢١٦هـ-١٨٠٢م)، ثم دخل سعود مكة ظافرًا بعد أن جلا عنها الشريف غالب وجنوده إلى جدة (محرم سنة ١٢١٨هـ-١٨٠٣م).

وكتب «سعود» إلى السلطان سليم الثالث سلطان تركيا ينبئه بهذا الفتح، ويخبره أنه قد هدم القباب التي فوق القبور، ويطلب إليه منع مجيء المحمل من دمشق أو القاهرة؛ «فإن ذلك ليس من الدين في شيءٍ».

وفي هذه الرسالة، وإخراجه من كان بمكة من الترك، إعلان بتقلص ظل السلطنة العثمانية عن مكة.

واستولى الوهابيون على (المدينة) بعد فتح مكة بسنتين، ونهبوا نفائس الحرم النبوي وما فيه من الجواهر، وكانت قيمتها لا تقدر بمال. ذكر الجبرتي ما ذاع عن قيمتها فنقل أنها «ملأت أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت العظيم القدر، من ذلك أربعة شمعدانات من الزبرجد، وبدل الشمعة قطعة ماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام، ونحو مائة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص المطعم بالماس والياقوت، ونصالها من الزبرجد والبشم، وسلاحها من الحديد الموصوف وعليها دمغات باسم الملوك والخلفاء السالفين».

امتدت دعوة الوهابيين إلى (عسير) و(اليمن) واتجهت أنظارهم إلى الشام، فزحفوا عليها ووصلوا في زحفهم إلى حدود فلسطين؛ ولكن دعوتهم لم تلق في سورية تأييدًا لما ارتكبوه من القسوة والفظائع ومنعهم المحمل الذي يصحبه الحجاج من دخول مكة، وقد خرج عبد الله باشا العظيم والي الشام بالمحمل فمنعه الوهابيون من التقدم وقتلوا جنوده ونهبوا الحجاج.

تعطلت مراسم الحج السنوية واضطربت تركيا بإزاء امتداد دعوة الوهابيين واستيلائهم على الحرمين الشريفين ومنعهم الحجاج الذين لا يتبعون تعاليمهم من الحج وانتصارهم على الولاة في العراق والشام، فاستنجدت بمحمد علي باشا وطلبت إليه محاربتهم، وكان نفوذهم في ذلك الحين قد بلغ أقصى مداه، ولم تجئ سنة (١٨١١م) -التي جهز فيها محمد علي جيشه لقتالهم- حتى كان سلطانهم قد امتدَّ من أقصى الجزيرة إلى أقصاها.

معدات الحملة

اتخذمحمد علي جهة (القبة) القريبة من القاهرة معسكرًا للحملة إلى أن يتم تجهيزها، وعقد لواءها لنجله «أحمد طوسن باشا» وكان في السابعة عشر من عمره، ورتب له أبوه حفلة حافلة لإلباسه خلعة القيادة وانتقاله إلى معسكر الحملة، ولما وقعت مذبحة المماليك بالقلعة في اليوم الذي كان محددًا لها (أول مارس سنة ١٨١١م) أرجئت الحفلة إلى يوم ٣٠ مارس، ففي اليوم المعهود تحرك موكبه من القلعة إلى معسكر الحملة بالقبة، وأخذت الحكومة تجهزها بالرجال والعتاد، وقطعت في ذلك ستة أشهر ونيفًا إلى أن صارت على أهبة الرحيل، وبلغ عدد رجالها (٨٠٠٠) مقاتل؛ منهم ستة آلاف من المشاة، وألفان من الفرسان، بينهم الكثير من البدو.

وتولى إدارة مهماتها السيد محمد المحروقي كبير تجار مصر[١]، وكان له في إعدادها وتجهيزها ورسم خططها شأن كبير. **قال الجبرتي** في هذا الصدد لمناسبة رحيله إلى الحجاز: «وفيه -١٢ رمضان سنة ١٢٢٦هـ (٣٠ سبتمبر سنة ١٨١١م) خرج السيد محمد المحروقي ليسافر صحبة الركب، وخرج في موكب جليل لأنه هو المشار إليه في رياسة الركب ولوازمه واحتياجاته وأمور العربان ومشايخهم، وأوصى الباشا ولده طوسون باشا أمير العسكر بألا يفعل شيئًا من الأشياء إلا بمشورته واطلاعه، ولا ينفذ أمرًا إلا بعد مراجعته».

كان خط سير الحملة أن تقلع السفن بالجنود المشاة من ثغر السويس إلى (ينبع) ميناء المدينة المنورة. أمَّا الفرسان وعلى رأسهم طوسون باشا فيسيرون برًّا من طريق برزخ السويس فالعقبة حتى يبلغوا (ينبع) فيلتقوا بالمشاة بها، ومن هناك يزحف الجيش إلى وجهته[٢].

وقد استوجب نقل المشاة والمهمات بحرًا إنشاء عمارة بحرية من السفن؛ لأن مصر لم يكن لها إلى ذلك الحين أسطول في البحر الأحمر (ولا في البحر الأبيض) فاعتزم محمد علي إنشاء أسطول لنقل الحملة، وأبدى في سبيل ذلك من علو الهمة ما جعله مضرب الأمثال في قوة الإرادة ومضاء العزيمة؛ ذلك أن كل المهمات والأخشاب والمواد اللازمة لإنشاء الأسطول كانت تنقصه، فجلب الأخشاب من أشجار مصر، واستكملها من الخارج وخاصة من الأناضول، وبادر إلى إنشاء السفن في «ترسانة» بولاق، وجمع لهذا الغرض كل من استطاع جمعهم من صناع المراكب، وتولى الإشراف بنفسه على العمل، فأخذ الصناع يقطعون الأخشاب ويفصلونها قطعًا ويضعون على كل قطعة رقمًا خاصًّا بها، ثم تنقل على ظهور الجمال إلى السويس لتركب هناك، ويقال:

---

(١) هو ابن السيد أحمد المحروقي الذي أوردنا ترجمته في الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية» ص٣٠٥، الطبعة الأولى.

(٢) تجد خط سير الحملة برًّا مرسومًا على الخريطة الملحقة بهذا الفصل.

إن عدد الإبل التي استخدمت لهذا الغرض بلغ ثمانية عشر ألفًا، ولم تمض عشرة أشهر حتى أنشئ بالسويس ثمانية عشر مركبًا كبيرًا تسع أكثر ما أعد للحملة من الجنود والمؤن والذخائر والمهمات.

وباشر محمد علي ترحيل الحملة ومهماتها من السويس، فأقلعت بها السفن يوم (٣٠ سبتمبر سنة ١٨١١م) قاصدة ينبع، وعاد هو إلى القاهرة، ثم ارتحل طوسون باشا من بركة الحاج يوم (٦ أكتوبر) يقود حملة الفرسان يتبعها عدد كبير من الإبل تحمل ما تحمل من المهمات والمئونة والذخائر.

وكان يصحب الحملة طائفة من الصناع من كل حرفة، وصحبها السيد محمد المحروقي مدير المهمات كما قدمنا، ومضى معها أربعة من العلماء من أئمة المذاهب الأربعة، وهم السيد أحمد الطحطاوي الحنفي، والشيخ محمد المهدي الشافعي، والشيخ الخانكي المالكي، والشيخ المقدسي الحنبلي، وكان مقررًا سفر السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد (الذي كان له شأن في مقاومة الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧م)، والشيخ علي خفاجي من علماء دمياط؛ ولكنهما اعتذرا عن مصاحبة الحملة فأعفيا من السفر.

وقائع الحملة

قلنا: إنَّ الحرب التي خاضت مصر غمارها في صحارى جزيرة العرب وجبالها من أشق الحروب وأصعبها؛ لأن الجيش المصري واجه قوة الوهابية في أوجها، وعلى رأسهم أمير شديد المراس قوي الشكيمة بعيد النظر، وهو الأمير (سعود بن عبد العزيز) الملقب بسعود الكبير، يمتاز موقفه بأنه يحارب حربًا دفاعية، في بلاده ومفاوزه، وبين معاقله ورجاله؛ على أن الجيش المصري قد وجد معاضدة من سكان الثغور الحجازية كجدة وينبع؛ لأن انقطاع طريق الحج ألحق بهم ضررًا كبيرًا؛ إذ كانت أرزاقهم تأتيهم من الحجاج، فكانوا ناقمين على الوهابيين ودعوتهم، وكذلك أشراف مكة، وخاصة الشريف غالب، فإن نفوذ الوهابيين قد محق سلطته، وإن كانوا قد

سمحوا له بالإقامة في مكة، وفضلًا عن ذلك فإن محمد علي ونجليه طوسون وإبراهيم استطاعوا أن يستميلوا إليهم بعض رؤساء القبائل من أنصار الأمير سعود بالعطاء والوعود، فكانت هذه الوسائل من العوامل التي أيدت مركز الجيش المصري في الحملة على الحجاز.

احتلال ينبع

وصلت الحملة بطريق البحر إلى ميناء (ينبع) فاحتلتها دون مقاومة تذكر، ولم يكن بها سوى حامية من ثلاثمائة من الوهابيين فر قائدهم وبعض رجاله، ووقع الباقون قتلى أو أسرى.

احتلال بدر

ثم جاء طوسون باشا بطريق البر يتقدم فرقة الفرسان، فلما وصلت الفرقة (أكتوبر سنة ١٨١١م) وتلاقت وحدات الجيش أمر طوسون بالزحف على (المدينة) فتحرك الجيش من ينبع وسار إلى (بدر) وكان الوهابيون ممتنعين بها، فاشتبك بهم في معركة دامت ساعتين انتهت باحتلال (بدر)، وارتد الوهابيون إلى وادي (الصفراء)[١] حيث تحصنوا بها وأقاموا الاستحكامات لملاقاة الجيش المصري.

هزيمة الصفراء

زحف طوسون على وادي (الصفراء) في قوة تبلغ ثمانية آلاف من الجنود، وهاجمها الجند حتى صاروا إلى طرق ضيقة يشرف عليها الوهابيون من علي، فانهالت القذائف على الجنود وفتكت بهم فتكًا ذريعًا، فانقلبت الصفوف الأولى منهزمة، ووقع الذعر فيما وراءها، فاختل نظام الجيش وكانت عليه الهزيمة، وتشتت الجند تاركين مضاربهم وأثقالهم ومدافعهم وتراجعوا يرمي بهم الرعب قاصدين الساحل.

---

(١) تجد بالخريطة الملحقة بهذا الفصل مواقع البلاد التي يرد ذِكْرها في سياق الحديث.

كانت هذه الواقعة هزيمة كبرى فقد فيها الجيش المصري نحو ستمائة قتيل، وفقد معظم مدافعه وذخيرته وأرزاقه، ورجعت فلوله بغير نظام إلى ينبع، وقتل منهم عدة آلاف في الطريق بحيث لم يبق من الجيش بعد أن رجع إلى ينبع غير ثلاثة آلاف، ولو أن الوهابيين الذين دافعوا عن وادي (الصفراء) كانوا أكثر عددًا وأكثر دراية بفنون القتال، لتعقبوا جيش طوسون باشا بعد الهزيمة، وكان من المحقق ألا ينجو منه أحد.

بعث طوسون بنبأ هذه الهزيمة إلى أبيه، ونسبها إلى اختلاف قواده وتقصيرهم، وكان أكثر الجنود والضباط الهاربين من الأرناءود، ثم طلب طوسون المدد كي يسد الفراغ الذي وقع في صفوف الجيش، فتأثر محمد علي باشا لهذه الهزيمة تأثيرًا شديدًا، وأرسل يستدعي رؤساء الجيش المسئولين عنها، وعاد بعضهم إلى مصر من تلقاء أنفسهم، فغضب عليهم محمد علي وأقصاهم عن مراكزهم ونفاهم من مصر، وكان منهم (صالح قوش) رئيس الجند الأرناءود الذي كان له شأن خطير في مذبحة المماليك بالقلعة.

لم تضعضع هذه الهزيمة من عزيمة محمد علي باشا؛ بل قابلها بالجلد والثبات، وأخذ يعد العدة لإرسال حملة جديدة إلى الحجاز، **قال الجبرتي** في هذا الصدد:

«ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته في تجهيز عساكر أخرى وبرزوا إلى خارج البلدة».

واضطر محمد علي باشا للقيام بنفقات الحملة إلى فرض ضرائب جديدة، فاستوفى الضريبة من باقي الأطيان الموقوفة، وطلب إتاوة من القرى، وكان الفلاحون بمنزلة من الضنك والفاقة، فأذن لهم أن يؤدوها غلالًا، وأمكنه أن يموِّن منها الجيش المصري في الحجاز.

موقف طوسون باشا

بقي الوهابيون بعد انتصارهم في واقعة (الصفراء) في معاقلهم لا يفكرون في مهاجمة طوسون باشا بينبع، واكتفوا بتحصين المدينة. وانتهز طوسون هذه الغفلة وأخذ في فترة انتظار المدد من مصر يستميل القبائل الضاربة بين ينبع والمدينة بالمال والهدايا، وقد رأى أن هذه الوسيلة أعود عليه بالنفع من الانتصار على الوهابيين في معركة؛ بل معارك. كما أنها هي الوسيلة الفعالة في التغلب عليهم، وقد نجح فعلًا في خطته هذه، وأرسل له محمد علي باشا صناديق الأموال والكساوى لتفريقها على رجال القبائل؛ فمهدت له السبيل للاستيلاء على المدينة ومكة.

احتلال الصفراء

تلقى طوسون باشا المدد، فتحرك قاصدًا المدينة، وانضم إليه كثير من القبائل من عرب (جهينة) (وحرب)، واحتل الصفراء بدون مقاومة بفضل مؤازرة العرب الموالين له.

قال الجبرتي في هذا الصدد: «في ٢٤ رمضان سنة ١٢٢٧هـ (أول أكتوبر سنة ١٨١٢م) وردت هجانة مبشرون باستيلاء الأتراك[1] على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب؛ بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب، وتدبير شريف مكة (الشريف غالب)، ولم يجدوا بها أحدًا من الوهابيين، فعندما وصلت هذه البشائر ضربوا مدافع كثيرة تلك الليلة من القلعة».

فتح (المدينة)

تابع الجيش سيره حتى بلغ أسوار المدينة، وكانت الرحلة إليها شاقة مضنية تكبد فيها الجنود المتاعب والأهوال لوعورة الطرق وبعد المسافات واشتداد الحر، فأمر

(١) كذا يسمى الجيش المصري، وكان الجبرتي يعطف كثيرًا على الوهابيين ويدافع عنهم وينتقد الحملة عليهم.

الجنود أن يسيروا في الليل ويستريحوا في النهار، قطع الجيش في رحلته ثلاث ليال حتى بلغ المدينة، فضرب عليها الحصار، وتفادى إطلاق القنابل عليها خشية أن تصيب الحرم النبوي الشريف، فاستعاض عن الضرب بوضع لغم تحت سور المدينة استعدادًا لنسفه، وأنذر السكان بأن يلزموا بيوتهم حتى لا يصيبهم مكروه، وفي الموعد المضروب أشعل اللغم فنسف جزءًا كبيرًا من السور وفتح ثغرة دخل منها الجنود، فقتلوا من أدركوهم من الحامية الوهابية واحتلوا المدينة، فكان احتلالها أول انتصار كبير للجيش المصري في حرب الحجاز، وأرسل طوسون مفاتيح المدينة إلى أبيه في مصر وبشره بهذا النصر المبين، فأذيع الخبر في العاصمة وأطلقت المدافع من القلعة ابتهاجًا بهذه البشرى.

قال الجبرتي في هذا الصدد: «في ١٠ ذي الحجة سنة ١٢٢٧هـ يوم الأضحى وردت هجانة من ناحية الحجاز وعلى يدهم البشائر بالاستيلاء على قلعة المدينة المنورة، ونزول المتولي على حكمهم، وأن القاصد الذي أتت بشائره وصل إلى السويس وصحبته مفاتيح المدينة، فحصل للباشا (محمد علي) بذلك سرور عظيم، وضربوا مدافع وشنكا بعد مدافع العيد».

وتقدم المصريون فاحتلوا (الحناكية) شمالي المدينة.

فتح مكة (يناير سنة ١٨١٣م)

عاد طوسون باشا إلى ينبع وأقلع منها إلى جدة فاحتلها، واستقبله بها الشريف غالب وسار منها إلى مكة فدخلها دخول الظافر، وكان لمعاونة الشريف غالب وقبائل عرب الحجاز التي استمالها بالمال أثر كبير في استيلاء الجيش المصري عليها.

وقد وردت الأنباء إلى مصر بفتح مكة فزينت المدينة خمسة أيام متواليات ابتهاجًا بهذا الفتح المبين.

قال الجبرتي: «وفي يوم الثلاثاء ٧ صفر سنة ١٢٢٨هـ (٩ فبراير سنة ١٨١٣م) وردت بشائر من البلاد الحجازية باستيلاء العساكر على جدة ومكة من غير حرب، فضربوا مدافع كثيرة، ونودي في صبح بزينة المدينة ومصر وبولاق، فزينت خمسة أيام أولها الأربعاء وآخرها الأحد».

احتلال الطائف

وبعد أن وطد طوسون باشا مركزه في مكة تقدم إلى (الطائف) فاحتلها في (٢٩ يناير سنة ١٨١٣م).

تحرج موقف الجيش المصري

رأيت مما تقدم مبلغ ما ناله الجيش المصري من الانتصارات المتوالية، واحتلال المدينة ومكة وأهم مواقع الحجاز، على أن هاتيك الانتصارات لم تلبث أن أعقبها تحرج مركز الجيش؛ ذلك أن الأمير «سعود بن عبد العزيز» ظل منذ نزول الجيش المصري إلى ينبع يرقب تطور القتال دون أن يخاطر فيه، وترك لبعض أنصاره الاشتباك مع الجيش المصري في المعارك المتقدمة، وأخذ هو في خلال الفترة يدرس أساليب الجيش المصري في الحرب، ويتعرف مبلغ قوته، ويرسم الخطط، ويستعد لملاقاته في الوقت المناسب، فلما بلغه نبأ احتلال (الطائف) أمر قواته بالزحف، وكانت مؤلفة من جيشين: الأول يقوده هو بنفسه، والثاني بقيادة ابنه (فيصل)، فزحف الجيشان بمجموعها على مكة والمدينة، وأخذ الوهابيون يقطعون المواصلات بين المدينتين.

أدرك طوسون حرج موقفه، فبادر إلى ملاقاته، وشرع في مهاجمة المراكز التي احتشد فيها الوهابيون.

هزيمة الجيش المصري في (تَرَبة)

اتخذ فيصل مدينة (تربة) معسكرًا له وأحاطها بالخنادق، فأنفذ طوسون باشا بقيادة «مصطفى بك» أحد قواده لمهاجمته فيها، فسار إليها «مصطفى بك» بجنوده

وضربوا عليها الحصار؛ لكن الوهابيين انقضوا عليهم، وكانوا بقيادة سيدة من نبلائهم تدعى «غالية»، أثارت فيهم الحمية والحماسة؛ فأعملوا في الجيش المصري قتلًا إلى أن وقعتْ عليه الهزيمة، وارتد بغير نظام إلى الطائف بعد أن ترك مدافعه وذخيرته.

إخلاء الحناكية

وفي الوقت نفسه أخذ الأمير «سعود بن عبد العزيز» في قوة من عشرين ألفًا يهاجم الحناكية التي كانت ترابط بها حامية من الجيش المصري بقيادة «عثمان كاشف»، وهي تبعد عن المدينة بنحو عشرين فرسخًا، فدافعت عنها الحامية دفاعًا شديدًا؛ لكنها اضطرت للتسليم أمام جموع الوهابية، فاحتل الوهابيون (الحناكية) وساروا قاصدين الزحف على المدينة.

تغير الموقف الحربي، ورجحت كفة الوهابيين؛ فإن هزيمة الجيش المصري في (تربة) وإخلاء (الحناكية) قد أضعف مركز طوسون باشا، وأخذ الوهابيون يهاجمون المخافر الأمامية للجيش المصري بدون انقطاع أو هوادة.

خسائر الجيش

وزاد في حرج الموقف انتشار الأمراض في الجيش المصري، وما أصاب الجنود من الإعياء لشدة القيظ وقلة المؤنة والماء، ورداءة الطقس والمتاعب الهائلة التي أنزلتها بهم المعارك، وقطع المراحل الشاسعة في صحراء الحجاز. ولم يكن في الجيش أطباء لمعالجة المرضى وتدبير الوسائل الصحية، ففتكت بهم الأمراض فتكًا ذريعًا، وقد أصاب الجيش من المعارك والأمراض خسائر فادحة، بلغت من بدء القتال نحو ثمانية آلاف قتيل، وفقد الجيش من مئونته نحو خمسة وعشرين ألف رأس من الماشية، وتكلفت الحملة إلى ذلك الحين (٣٥٠٠٠)[1] كيس؛ أي (١٧٥,٠٠٠) جنيه. وهذا

(١) إحصاء «فولابل» في كتابه «مصر الحديثة» ج٢، ص٥٨.

الإحصاء يدلك على ما تكبدته مصر من الضحايا والخسائر الجسيمة في الدور الأول وحده من الحرب الحجازية.

رأى طوسون باشا بعد تلك الخسائر أن يلزم خطة الدفاع، واعتصم هو وجيشه بمكة والمدينة وجدة وينبع، وأرسل إلى أبيه بطلب المدد.

سفر محمد علي إلى الحجاز (أغسطس سنة ١٨١٣م)

تلقى محمد علي باشا هذه الأنباء بالجلد والثبات، وأجمع أن يسير بنفسه إلى الحجاز لمتابعة القتال إلى نهايته والقضاء على الوهابيين وبسط نفوذ مصر في جزيرة العرب، فحشد ما وسعه أن يحشد من الجنود في مصر، وفرض إتاوات على التجار، وجرد حملة جديدة، وسار إلى الحجاز في (شهر أغسطس ١٨١٣م) ليقود الجيش المصري في تلك الحرب الآكلة.

أبحر محمد علي من السويس ونزل بجدة، فشدد وصوله من عزائم الجيش لما كان يبعثه في النفوس من القوة المعنوية، وأخذ أثناء مقامه في جدة يدرس الحالة عن كثب ليضع الخطة التي تضمن له الفوز والغلبة، ثم مضى قاصدًا مكة وأدى مناسك الحج، ومن هنا جاء لقبه (الحاج محمد علي).

اعتقال الشريف غالب

وكان أول ما اتخذه اعتقاله الشريف غالب؛ ذلك أنه ارتاب في إخلاصه، ورأى منه تراخيًا في معاونة الجيش المصري مما يحتمل أن يكون سببه رغبته في إطالة الحرب ليخدم مصالحه الذاتية، ووقر في نفسه أن مسلكه كان من أسباب استفحال الدعوة الوهابية، وأن بقاءه في مركزه قد يحول دون فوز الحملة وسرعة وصولها إلى غايتها،

فأمر بالقبض عليه واعتقله في نوفمبر سنة (١٨١٣م) وبعث به إلى القاهرة[١]، وولي ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور.

وطَّد محمد علي مركزه في مكة ليجعلها بمنجاة من هجمات الوهابيين، ثم اعتزم السير لمهاجمتهم في معاقلهم؛ فعهد إلى ابنه طوسون باشا أن يتخذ (الطائف) قاعدة للزحف، فسار ومعه جيش من خمسة آلاف من المشاة وألف من الفرسان وستة من المدافع، وفيما هو يعد هذه المعدات كان «سعود» يرقب حركات خصمه، وامتنعت قواته في (بيشة) و(رَنْيه) و(تربة)[٢]، فسار طوسون باشا من الطائف قاصدًا الاستيلاء على (تربة) وضرب عليها الحصار؛ ولكنه لم ينل منها منالًا، وكانت الحملة عليها شاقة منهكة للجنود مضنية لهم؛ فساءت حالتهم ونفدت مئونتهم.

فأكره طوسون على رفع الحصار عن تربة والارتداد بجنوده، فتعقبهم الوهابيون ورجع الجيش أدراجه إلى الطائف بعد أن أحرق خيامه تفاديًا من وقوعها في يد الأعداء.

احتلال قنفذه ثم إخلاؤها

وقد رأى محمد علي أن أهل العسير يناصرون الوهابيين ويناوشون وحدات جيشه في الحجاز، فأنفذ حملة إلى ميناء (قنفذه) فاحتلتها وأمر بتحصينها توطئة للزحف على داخل البلاد، وأبقى بها حامية من ألف ومائتي جندي، ولكن هذه الحامية لم تلبث قليلًا حتى اضطرت إلى إخلائها؛ ذلك أن قومندان الحامية فاته أن يحتل عين الماء التي تستقي منها البلدة، فاحتلها العربان وقطعوا الماء عن الحامية، فأنفذ إليها القومندان كتيبة من الجنود لاستخلاصها، ولكن العرب هاجموهم بقيادة زعميهم «طامي بن

(١) وصل «الشريف غالب» إلى القاهرة بعد أن صادر محمد علي أمواله، ثم نقل إلى «سلانيك» حيث توفي بها سنة ١٨١٦م.

(٢) بالقسم الجنوبي من نجد، بالقرب من حدود الحجاز، وتقع «تربة» على بعد ثمانين ميلًا من الطائف، و«بيشة» على بعد مائة ميل من تربة.

شعيب» وردَّهم على أعاقبهم؛ فوقع الرعب في جنود الحامية ولم ير قائدهم وسيلة لإنقاذهم من الظمأ سوى إخلاء المدينة والرجوع إلى جدة، فنجا من الحامية من استطاع النجاة بركوب السفن وقتل الوهابيون عددًا كبيرًا ممن أدركوهم قبل أن يتمكنوا من الفرار، وبذلك فشلت الحملة على قنفذة.

طلب محمد علي المدد من مصر

وبديهي أن هزيمة طوسون في (تربة)، وإخلاء قنفذة، ومناوشات الوهابيين المستمرة لوحدت الجيش المصري، كان من شأن ذلك كله أن يبعث اليأس والقنوط، لكن محمد علي باشا كان ذا عزيمة حديدية لا تنثني أمام الصعاب مهما عظمت، وهذه العزيمة من أخص صفاته، وهي من عوامل عظمته ومجده، فقابل هذه الهزائم بالثبات وعلو الهمة، وكان قد أرسل إلى كتخدا بك في مصر «محمد لاظ أوغلي» يطلب إليه أن يوافيه بالمدد والمؤن، فأمده بسبعة آلاف من الجنود وسبعة آلاف كيس، وتحملت مصر في إعداد هذه الحملة الجديدة تضحيات جسيمة؛ فإن الكتخدا بك -نزولًا على أمر محمد علي- استولى على أملاك الملتزمين (فبراير سنة ١٨١٤م) فتذمَّر الناسُ من هذا الإرهاق وقصدوا إلى المشايخ ليحولوا دون إنفاذه، فذهبت شكاواهم عبثًا، وجمع الكتخدا سبعة آلاف كيس من المصادرات وفرض الإتاوات، واستطاع أن يجند السبعة الآلاف مقاتل من مختلف طبقات المجتمع بطريقة التطوع للخدمة العسكرية. وقد تأخذك الدهشة إذ تسمع في هذا المقام عبارة التطوع؛ لأن المفهوم أن مثل هذه الحملات البعيدة كان يحشد لها الناس بالقوة؛ ولكن ما ذكرناه مستفاد من رواية الجبرتي، فقد أشار إلى هذه الطريقة في حوادث ربيع الثاني سنة ١٢٢٩هـ (مارس سنة ١٨١٤م) بقوله: «وفي ليلة الإثنين سادسه حضر مميش أغا من ناحية الحجاز مرسلًا من عند الباشا باستعجال حسن باشا للحضور إلى الحجاز، وكان قبل ذلك بأيام أرسل يطلب سبعة آلاف عسكري وسبعة آلاف كيس، فشرع كتخدا بك في استكتاب أشخاص من أخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحي القرى، فكان كل مَن

ضاق به الحال في معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكاتبونه، وإن كان وجيهًا جعله الكتخدا أميرًا على مائة أو مائتين».

وفاة سعود بن عبد العزيز

وصل هذا المدد إلى جدة، وفيما كان محمد علي باشا يتأهب للزحف ساعدته العناية الإلهية بوفاة خصمه الشديد البأس الأمير «سعود بن عبد العزيز»، توفي بالدرعية في إبريل سنة ١٨١٤م.

فخلفه في الإمارة نجله «عبد الله بن سعود»، ولم يكن على صفات أبيه من الشجاعة والإقدام وبُعد النظر وعلو الهمة؛ بل كان على العكس شديد التردد ضعيف الفؤاد لين العريكة، لا يميل إلى الحرب والقتال، فكانت وفاة سعود بن عبد العزيز من الأسباب التي ساقتها الأقدار لنجاح محمد علي، وهكذا كان للحظ أثر كبير في حياة ذلك الرجل العظيم.

حصار الوهابيين الطائف

أنفذ محمد علي «عابدين بك» أحد قواد جيشه لاحتلال وادي زهران الذي يفصل اليمن عن الحجاز، فزحف ولم يلق بادئ الأمر كبير مقاومة، ثم ما لبث الوهابيون أن عادوا يهاجمون الجيش المصري حتى اضطر إلى الانسحاب ونالته الخسائر الفادحة، فكان انسحابه هزيمة للمصريين، وظفرًا للوهابيين، وتعقبه هؤلاء حتى (الطائف) وأقبلوا بجموعهم الحاشدة وضربوا عليها الحصار وكان فيها طوسون باشا.

بلغ محمد علي هذا النبأ وهو في جدة، فأخذ يعمل فكرة لإنقاذ ابنه من الحصار، فاهتدى إلى حيلة حربية تدل على شدة ذكائه وحضور ذهنه؛ ذلك أنه ركب في عشرين من رجاله وسار نحو الطائف، ووقف على جبل يشرف عليها، فشاهد مركزها وهي محصورة، وفيما هو كذلك جاءه رجاله بفارس عربي من الوهابيين وقع أسيرًا في أيديهم، فلما رآه محمد علي أخذ يسأله عن قوات الوهابيين فيجيبه على ما يسأل، ثم

عرض عليه أن يطلق سراحه على أن يحمل رسالة إلى ابنه طوسون في الطائف، وأخذ عليه موثقًا أن يؤدي الرسالة، فوفى الرجل بعهده، وحمل الرسالة إلى طوسون باشا، فإذا هي تحوي الكلمة الآتية: «إني قادم إليك، فاحضر والحق بنا فوق الجبل».

رفع الحصار عن الطائف

وقد اطلع الوهابيون على فحوى الرسالة، فتوهموا أن جيشًا عَرمرمًا قد أقبل لنجدة طوسون، وأنهم سيقعون حينئذ بين نارين، والحقيقة أنها خدعة ابتكرها محمد علي لإيهام الوهابيين أنه قادم في قوة كبيرة، وقد كان لهذه الخدعة أثرها الفعال في سير القتال، فإن الوهابيين أجمعوا على الانسحاب ورفعوا الحصار عن الطائف.

التأهب لمعاودة القتال

عاد محمد علي ونجله إلى مكة (يونية سنة ١٨١٤م) ومنها إلى جدة، وأخذ في تدريب السبعة الآلاف من الجنود الذين بعث بهم الكتخدا بك، وبقي في جدة ثلاثة أشهر يعد العدة لاستئناف القتال، وفيما هو يتأهب للزحف شبت الثورة في قبائل البدو الضارية بين ينبع والمدينة، وسببها أن حاكم المدينة قتل شيخ قبيلة حرب، فقامت القبائل للأخذ بالثأر وقطعت السبل بين جدة ومكة وينبع والمدينة، وكادت الثورة تستفحل لولا أن عالجها محمد علي باشا بالحكمة، فسار طوسون إلى ينبع ومنها إلى بدر حيث التقى برؤساء القبائل، فتعهد لهم بعقاب حاكم المدينة عقابًا يتكافأ مع جريمته، فهدأت بذلك حدة غضبهم، وساعده على تهدئتهم ما بذله لهم من المال، فكان من نتائج ذلك أن تخلوا عن وادي الصفراء الذي يحتلونه.

وفي خلال تلك الحوادث تلقى طوسون باشا من المدينة نبأ وفاة حاكمها الذي شبَّت الثورة بين القبائل بسببه، فأذاع طوسون هذا النبأ بين القبائل وأفهمهم أن أباه هو الذي أمر بقتله عقابًا له على فعلته؛ فهدأت القبائل وجنحت إلى السلم وكفت عن قطع الطرق، وكان موسم الحج قد أقبل فصار طريق الحجاج مأمونًا، وحج محمد علي

للمرة الثانية، وأقبل الحجاج من مصر ومن سائر الأقطار الإسلامية وأدوا الفريضة آمنين مطمئنين.

واقعة (بِسُل) (يناير سنة ١٨١٥م)

وبعد أن تمَّت مراسم الحج، تجددت الحرب، وأنفذ محمد علي جنوده إلى (الطائف) تمهيدًا للزحف، وكان الوهابيون قد جمعوا من المقاتلة نحو عشرين ألفًا حشدوهم بقيادة «فيصل بن سعود» بين (بسل) و(تربة)، وكان لهم عدا ذلك احتياطي من نحو عشرة آلاف مقاتل، فزحف محمد علي في نحو أربعة آلاف مقاتل على (بسل) الواقعة بين الطائف وتربة، والتقى فيها بجيش الوهابيين (يناير سنة ١٨١٥م) فدارت رحى القتال بين الفريقين واستعرت نار الحرب واستمرت المعركة من الفجر حتى المساء، وانتهت بهزيمة الوهابيين وقتل منهم نحو ستمائة وتشتت الباقون. وتعد واقعة (بسل) من أكبر وقائع الحرب الوهابية؛ بل من أهم المعارك في تاريخ مصر الحربي.

احتلال (تربة) و(ورَنية) ثم (بيشة)

تابع المصريون زحفهم بعد واقعة بسل فاحتلوا (تربة)، ثم احتلوا كذلك (رنية) و(بيشة)، ولقي الجيش خلال هذه الغزوة متاعب هائلة، ولم يكن غذاء الجنود في الغالب سوى التمر، وكان محمد علي يقاسمهم شظف العيش ليشجعهم على احتماله.

احتلال قنفذه

ثم رجع إلى الشاطئ واحتل ميناء (قنفذه) وأبقى فيها حامية مصرية، وذهب منها إلى جدة، ومنها إلى مكة تحف به أعلام الظفر.

احتلال الرَّس

وزحف طوسون من المدينة على القسم الشمالي من نجد متشجعًا بتلك الانتصارات، فبلغ في زحفه إلى الرَّس[١] -إحدى مدن نجد المهمة- فاحتلها، ثم احتل (الشبيبية) الواقعة على طريق الدرعية عاصمة الوهابيين، واستعد الجيشان فأخذ كل منهما يتأهب لمعركة فاصلة.

طلب الوهابيين الصلح

على أن طوسون رأى من المغامرة أن يبدأ بالهجوم؛ لأنه أدرك أنه أمام قوات تفوقه عددًا، فتشاور وقواد جيشه واتفقوا رأيًا على الانسحاب إلى المدينة؛ ولكنه لم يكد يستقر رأيه على هذا العزم حتى أوفد إليه الأمير «عبد الله بن سعود» رسولًا يعرض الصلح والطاعة؛ فدُهش طوسون لهذه المفاجأة على حين كان يشعر بأن مركز عدوه قوي منيع، لكن ضعف «عبد الله بن سعود» وما جُبل عليه من التردد كان من أهم البواعث التي مالت به إلى التسليم والخضوع. فأجاب طوسون على طلب الصلح أنه لا يستطيع أن يجيب الطلب إلا بعد عرض الأمر على والده، وأنه يمنح الأمير الوهابي هدنة عشرين يومًا حتى يراجع والده، فقبل عبد الله بن سعود، وتهادن الفريقان ووقفت الحركات الحربية، وبقي كل جيش مكانه ينتظر الهدنة أن تنتهي.

رجوع محمد علي إلى مصر

وفي غضون ذلك عاد محمد علي إلى مصر فجأة؛ ذلك أنه تلقى من مصر أنباء شغلته وأهاجت وساوسه، إذ علم منها أن ثمة مؤامرة دبرها (لطيف باشا) في غيبته كما سيجيء بيانه، وبلغه كذلك أن حوادث خطيرة توشك أن تقع في أوربا إذ الصراع بالغ أشده بين نابليون والدول المتألبة عليه، وعلم من الأنباء الأخيرة أن نابليون بعد أن هزمه الحلفاء ونفوه إلى جزيرة (البا) قد أفلت من منفاه ورجع إلى فرنسا واسترد

(١) تبعد عن المدينة نحو ٢٧٠ ميلًا شرقًا بشمال.

عرشه وسلطته، فخشي محمد علي أن تكون عودة نابليون سببًا في تجدد الحرب والقتال في أوربا واستهداف مصر لحملة جديدة، إذ يفكر نابليون ثانية في غزوها، ومع أن هذه الفكرة لم يهجس بها نابليون بعد عودته من منفاه إلا أن محمد علي كان شديد الحذر كثير الهواجس خوفًا على مركزه، فأسرع بالرجعة إلى مصر لكي يتقي المفاجآت التي ليست في الحسبان، وعاد من طريق (القصير) فـ«قنا» فـ«القاهرة». وذكر الجبرتي نبأ عودته في حوادث رجب سنة ١٢٣٠هـ فقال: «إنَّه حضر إلى الجيزة ليلة ١٥ رجب (٢٣ يونية سنة ١٨١٥م)».

مؤامرة لطيف باشا

أمَّا مؤامرة لطيف باشا فحكايتها كما يذكرها جمهور المؤرخين أنه كان من مماليك محمد علي شاب اسمه (لطيف أغا) قربه إليه واختصه وجعله أمين خزانته، فلما جاءت الأنباء باستيلاء الجيوش المصرية على (المدينة) واستخلاصها من أيدي الوهابيين، أوفده محمد علي إلى الأستانة ليزف البشرى إلى الديوان العالي، فأنعمت الحكومة التركية على لطيف أغا برتبة الميرميران فصار (لطيف باشا)، فداخله الزهو والخيلاء، وزين له بعض رجال (المابين) أن يأتمر بسيده ومنَّوه الأماني ووعدوه بالمساعدة على أن يخلفه في ولاية مصر، فقبل لطيف باشا هذه المهمة، وخيل له زهوه وغروره أنها فكرة ناجحة؛ وخاصة لأنَّ محمد علي عازم على التوجه إلى الحجاز فيكون غيابه خير فرصة لتنفيذ مهمته واعتلائه عرش مصر، وعاد إلى القاهرة ونفسه مملؤة آمالًا كبارًا، وبدا عليه في مصر من الغطرسة والكبرياء ما جعل الظنون تحوم حوله، واستشفَّ محمد علي بثاقب نظره تغيرًا في أطواره وحركاته، فارتاب في أمره -وما أكثر ما يستهدف الناس للشبهات والريب في ذلك العصر- وزاد في ارتيابه أن كتخداه (محمد لاظ أوغلي) -المشهور بكراهيته لجنس المماليك- نقم على لطيف باشا كبرياءه وخيلاءه وما ناله من المزايا والرتب؛ فألقي في روع محمد علي أنه يسرف في بذل المال ويستكثر من الأتباع والمماليك، فعسى أن يتخذهم جندًا ويحدث بهم حدثًا؛ فتزعزعت

ثقة محمد علي فيه. ولما مضى إلى الحجاز عهد إلى محمد لاظ أوغلي أن يرقب حركات لطيف باشا، وأطلق له أن يتخذ ما يراه في شأنه، وكان الكتخدا معتزمًا التنكيل به، فأخذ يؤلب عليه رؤساء الحكومة مثل حسن باشا، وطاهر باشا، وطبوز أوغلي، ومحو بك، ومحمود بك الدويدار، وكذلك أوغر عليه صدر إسماعيل باشا ابن محمد علي، وصمم على قتله بعد أن أخذ للأمر عدته.

وفي اليوم الموعود باغته بدعوته إلى اجتماع يعقد في القلعة للنظر في بعض الشئون، وخيَّره بين أن يحضر أن يغادر الديار المصرية، وكان لطيف يعلم ما وراء هذه الدعوة من المهالك، فحار في أمره، وبينما هو يفكر في حيلة ينجو بها أبصر فرأى بيته يحاصره نحو ألفين من الجنود جاءوا ليقبضوا عليه وأخذوا يطلقون الرصاص على داره، فعلم أن قد أحيط به، وفكر في الفرار، فاستتر في مخبأ بداره ومعه نساؤه ومملوك له حتى جن الليل، فتسلل هو إلى بيت خازنداره واختفى فيه.

أمَّا العسكر فاقتحم جماعة منهم دار لطيف باشا وكشفوا مخابئها، وفتشوها تفتيشًا دقيقًا، فعثروا على النساء والمملوك، ولم يجدوا ضالتهم -أي لطيف باشا- ولما كان الغد أراد لطيف أن يغادر بيت خازنداره خشية أن تقع عليه عيون الرقباء لقربه من بيته، فصعد إلى سطح البيت، واعتزم أن يقفز من سطح إلى سطح ليلوذ بالهرب، وبينما هو يقفز من سطح خازنداره أبصره أحد الجنود المراقبين له، فصاح به لينبِّه إليه الرقباء، فرماه لطيف باشا برصاصةٍ جندلته؛ ولكنها أيقظت نظر الرقباء فتعقَّبوه، ولم تمض ساعات حتى ألقوا القبض عليه فكبَّلوه وساقوه إلى الكتخدا لمحاكمته.

فعقد الكتخدا ديوانًا من كبار رؤساء الحكومة واتفقوا على إعدامه، وسيق لطيف باشا إلى ساحة الإعدام تحت سلالم سراي القلعة وقطع رأسه.

ويلوح لنا أن ما ذكره جمهور المؤرخين من قبل أن قتل لطيف باشا يرجع إلى ممالأته للحكومة التركية على انتزاع ولاية مصر من محمد علي أمر مشكوك فيه، ولا يسهل تصديقه؛ لأن الوقت لم يكن مناسبًا لخلع محمد علي وهو منصرف إلى توجيه كل

قواته لمحاربة الوهابيين، وحكومة الأستانة لم تكن في ذلك الحين تخشى بأس محمد علي، بل كانت في حاجة إليه لتفرغ من الدولة الوهابية التي تنازعها السلطة والسيادة وتتهددها بإنشاء دولة عربية قد تنتزع منها الخلافة، فمحمد علي كان وقتئذ مشمولًا برضى الحكومة التركية، ولا يتفق منطق الحوادث مع تآمرها عليه في هذه الظروف.

وأغلب الظن أن محمد علي وحاشيته قد ساءهم الإنعام على لطيف باشا بالباشوية؛ إذ لم يسبق للسلطان أن أنعم بها على أحد بعد تولية محمد علي غير أبنائه، وأخذت بطانة الباشا وخاصة كتخداؤه «محمد لاظ أوغلي» ينظرون بعين المقت والارتياب إلى لطيف باشا، وزادهم مقتًا له ما بدا عليه من الغطرسة والخيلاء بعد عودته من الأستانة، وكان «لاظ أوغلي» معروفًا عنه كرهه للمماليك، ولطيف باشا كان في الأصل مملوكًا، فحقد عليه واعتزم التنكيل به كما تقدم، واتخذ تهمة المؤامرة وسيلة لإنفاذ عزمه.

وقد ذكر الجبرتي حكاية المؤامرة، ولم يؤيدها في روايته، وكذلك لم يروها «مانجان» بلهجة تفيد اليقين.

مشروع الصلح وإخفاقه

في خلال الهدنة التي عقدها طوسون باشا مع «عبد الله بن سعود» جاءه كتاب من والده ينبئه أنه سافر إلى مصر لشئون هامة، وأنه ترك له عددًا عظيمًا من الجند بقيادة خازنداره، ويوصيه بالمبادرة إلى الزحف على (الدرعية) عاصمة الوهابيين لاستئصالهم والقضاء عليهم.

ورد خطاب محمد علي إلى ابنه فأرسل يستدعي الخازندار إلى مدينة (الرس) قبل انقضاء أجل الهدنة، وتشاور طوسون باشا هو وقواد الجيش ورؤساء القبائل الموالية، واستقر رأيه على قبول الصلح، واشترط لذلك شروطًا أهمها أن تحتل الجيوش المصرية (الدرعية)، وأن يرد عبد الله بن سعود كل ما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية من النفائس والجواهر، وأن يكون رهن أوامر طوسون باشا حتى إذا طلب إليه السفر إلى

أي جهة كائنة ما كانت أذعن للأمر، وأن يؤمن سبل الحج ويكون خاضعًا لحاكم المدينة، وألا يتم تمام الصلح إلا بعد عرضه على محمد علي باشا وإقراره.

وأرسل عبد الله بن سعود وفدًا إلى القاهرة ليعرض الصلح على محمد علي، ووصل الوفد إلى مصر في سبتمبر سنة (١٨١٥م)، ولكن محمد علي أظهر تشددًا ولم يرض بالشروط التي عرضها ابنه، وصمم على معاملة أمير الوهابيين معاملة الخوارج والعصاة، ولعله كان يرمي إلى بسط حكمه على جزيرة العرب، فرأى في بقاء ظل لدولة الوهابيين -مهما تظاهر عبد الله بن سعود بالخضوع والولاء- حائلًا دون استقرار حكمه في الجزيرة، فآثر أن يمحق قوته ويأخذه أسيرًا ليقضي على دولته القضاء الأخير، فطلب إلى الوفد قبل أن يصفح عن أميرهم أن يردَّ جميع ما أخذه الوهابيون من نفائس الحرم النبوي، وأن يسلم الدرعية إلى حاكم المدينة، وأن يحضر بنفسه ويذهب إلى الأستانة ليكون رهن أوامر السلطان، وليقدم له حسابًا عن أعماله. وكان محمد علي يتوقع ألا تقبل شروطه القياسة وخاصة سفر عبد الله بن سعود إلى الأستانة؛ لأن معنى ذلك تسليم عنقه إلى يد الجلاد، وقد تحقق ما توقعه؛ فإن عبد الله بن سعود لما بلغه نبأ هذه الشروط أرسل يقول: إنه لم يبق لديه شيء من النفائس التي انتزعها أبوه حتى يردَّ منها شيئًا، ورضي بأن يعين محمد علي نائبًا عنه في الدرعية يولى قبض الخراج، أو أن يحدد الخراج بمبلغ معلوم يتعهد بأدائه، ورفض شرط الذهاب إلى الأستانة.

فأرسل محمد علي يتهدده بالحرب وينذره جيشًا جرارًا يكتسح بلاده ويخربها، وبذلك أخفقت مفاوضات الصلح، وتأهب عبد الله بن سعود للحرب والقتال، وجرد محمد علي حملة جديدة على الحجاز بقيادة أكبر أنجاله «إبراهيم باشا».

رجوع طوسون باشا إلى مصر

علم «طوسون باشا» وهو في الحجاز بأنباء الفتنة العسكرية التي أثارها الجنود الأرناءود بالقاهرة وما وقع منهم من النهب والتمرد مما سيجيء بيانه، فقرر العودة إلى

مصر، وسار من المدينة إلى ينبع، ومنها إلى السويس بحرًا، وكان وصوله إليها في غاية شهر ذي القعدة سنة (١٢٣٠هـ)، وقدم القاهرة يوم ٥ ذي الحجة (٨ نوفمبر سنة ١٨١٥م)، وكان الاحتفال باستقباله عظيمًا بالغًا. **قال الجبرتي** في هذا الصدد: «في رابع ذي الحجة سنة ١٢٣٠هـ نودي بزينة الشارع الأعظم لدخول طوسون باشا سرورًا بقدومه، فلما أصبح يوم الثلاثاء خامسه احتفل الناس بزينة الحوانيت بالشارع، وعملوا له موكبًا حافلًا، ودخل من باب النصر، وعلى رأسه الطلخان وشعار الوزارة، وطلع إلى القلعة وضربوا في ذلك اليوم مدافع كثيرة وشنكا وحراقات».

استئناف الحرب في الحجاز بقيادة إبراهيم باشا

أبدى محمد علي همَّة كبيرة في تجريد الحملة الجديدة، وظل ستة أشهر يعد معداتها، وعقد لواءها لابنه الأكبر إبراهيم باشا[1]، فأمر بجمع المراكب في ساحل بولاق لنقل المئونة والذخائر والمدافع والمهمات إلى قنا، ومنها تنقل برًّا إلى ثغر (القصير) لتقلع منه إلى (ينبع) بحرًا. وسار إبراهيم باشا من بولاق يوم (٥ سبتمبر سنة ١٨١٦م) قاصدًا قنا، ولما وصل إلى أسيوط جند ألفين من الفلاحين لينضموا إلى الحملة.

ولما بلغت الحملة إلى «قنا» نقلت على ظهور الإبل إلى القصير، وأعد إبراهيم باشا ستة آلاف جمل قدمها عرب العبابدة لهذة الغاية، فمضت الحملة إلى ميناء القصير وأقلعت بهم سفن الأسطول المصري إلى ينبع، فبلغتها يوم (٢٩ سبتمبر). وكان يصحب إبراهيم باشا ضابط فرنسي من ضباط أركان الحرب وهو المسيو «فيسيير» Vaissiere وطبيب وجراحان وصيدلي من الإيطاليين.

ولم يكد يستقر به المقام في ينبع حتى سار إلى المدينة، فأدى فروض الزيارة النبوية، وأخذ يستعد للزحف والقتال.

(١) أنعم عليه السلطان بالباشوية مكافأة لأبيه على خدماته، وكان يبلغ من العمر سبعًا وعشرين سنة.

وفي اليوم الرابع من عيد الأضحى سار بجيشه وقصد (الصويدرة) شمالي المدينة واتخذها معسكره العام، وأخذ يجهز المعدات ويجمع الإبل للزحف على نجد؛ ولكنه عانى مصاعب كثيرة في بدء الحملة؛ منها أن معظم القبائل كانت ممالئة للوهابيين على محاربة الجيش المصري، فأخذوا يناشدون القوافل بين الصويدرة والثغور البحرية. فأنفذ إبراهيم باشا لمحاربتهم قوة من ألفي جندي التقت بهم على مسيرة يومين وأوقعت بهم الهزيمة.

ثم أخذ العرب يؤثرون الجانب المصري على الوهابيين لما لم يجدوا من هؤلاء منفعة أو طائلًا، فانضموا إلى إبراهيم باشا وتعهدوا بتقديم ما يطلب من الإبل وغيرها.

زحف إبراهيم باشا من (الصويدرة) وسار إلى (الحناكية) وعسكر بها وتحصَّن فيها، واتخذها نقطة ارتكاز لزحفه، ثم تحرك منها قاصدًا (الرس) التي اتخذها عبد الله بن سعود معسكرًا له، وكان الوهابيون قد احتلوها بعد عودة طوسون باشا إلى مصر.

وفاة طوسون باشا (سبتمبر سنة ١٨١٦م)

رجع طوسون باشا إلى مصر كما قدمنا، وبعد أن استقر به المقام تولى قيادة الفرق التي أنفذها محمد علي لترابط على فرع رشيد، وكان غرض محمد علي توزيع الجنود في مختلف أنحاء الوجه البحري حتى لا يكون احتشادهم في القاهرة خطرًا على النظام بعدما بَدَا منهم من التمرد والعصيان، ولكي يلقي في روعهم أنه لا يقصد تشتيتهم أو معاقبتهم أمر بأن يصحبهم في معسكراتهم الجديدة بعض أبنائه ورؤساء جنده؛ فتولى طوسون باشا قيادة بعض تلك الفرق كما قدمنا، واتخذ معسكره في (برنبال) الواقعة بالبر الشرقي للنيل تجاه رشيد، والتمس بها الراحة من عناء المعارك التي خاضها في الحجاز، فأخذ الموسيقيين والراقصين والراقصات والمغنيات ومجالس اللهو، وبقي بها إلى أن عاجلته منيته (ليلة ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦م) إثر مرض ثار به فجأة؛ قيل: إنه

نشأ من تهالكه على اللذات، ولم يمهله أكثر من عشر ساعات، ثم فاضت روحه، فنقلت جثته بطريق النيل إلى القاهرة، ودُفن في مقابر الإمام الشافعي.

توفي «طوسون» وهو مقتبل الشباب إذ لم يتجاوز العشرين من عمره، فجزع أبوه على فقده جزعًا شديدًا، وحزن الناسُ لوفاته لما كان عليه من الشجاعة والجود والميل إلى الشعب.

حصار (الرَّس)

اشتبكت طلائع الجيش المصري بالوهابيين على مقربة من (الرس)، فكانت الغلبة للجيش المصري؛ لما امتاز به من النظام والتسلح بالبنادق الحديثة، ومعاونة العربان من قبيلة حرب.

هزم الوهابيون ورجعوا القهقرى، وامتنع عبد الله بن سعود في (الرس)، فضرب عليها إبراهيم باشا الحصار، وجلب المدافع لرميها، وأقام الاستحكامات حولها، لكنها كانت على قوة ومنعة، فاستمر الحصار ثلاثة أشهر وسبعة عشر يومًا دون أن ينال منها طائلًا، ودافع عنها الوهابيون دفاع الأبطال بالرغم من قتالهم جيشًا مسلحًا بالبنادق الحديثة، ولم يكن عندهم إلا البنادق من الطراز العتيق الذي يطلق بالفتيلة، ومع ذلك صدوا هجمات الجيش المصري ثلاث مرات وكبدوه خسائر جسيمة، وبلغ عدد قتلاه مدة الحصار (٢٤٠٠) جندي، على حين لم يقتل من الوهابيين سوى (١٦٠) مقاتلًا، وهذا يدلك على فداحة الخسائر التي أصابت الجيش المصري في حصار (الرس).

وقد أدرك إبراهيم باشا أن خسائره ستتفاقم إذا هو استمر في الحصار، وأن ذخيرته نقصت ومئونته كادت تنفذ، وأصبح الجيش هدفًا للمجاعة. أضف إلى ذلك ما خَامر نفوس الجنود من الملل واليأس، وما قاسوه من الشدائد والأهوال، ثم انتشار الأمراض بينهم، وهبوب الزعازع والأعاصير التي كانت تقتلع الخيام فترمي بها، فلا يجد الجنود -وخاصة المرضى والجرحى- مأوى لهم.

فاضطر إبراهيم باشا أن يرفع الحصار عن (الرس)، وأن يقبل من عبد الله بن سعود شروطًا لوقف القتال ما كان ليرضاها لو لم تمتنع عليه، فصالحه على أن يرفع الحصار عن المدينة، وأن يضع أهلها سلاحهم ويقيموا على الحياد، ولا يدخل الرس أحد من جنود إبراهيم باشا أو ضباط جيشه، ولا يجبر الأهالي على تقديم شيء من المئونة للجيش، ولا يؤدوا إتاوة، وأنه إذا استولى الجيش على مدينة (عنيزة) تسلم له (الرس) بدون قتال، وإن لم يفلح يعود القتال ثانية.

سار إبراهيم باشا قاصدًا (عنيزة)، واحتل في طريقه (الخبراء) بعد أن ضربها بالمدافع عدة ساعات، واستراح الجيش بها أحد عشر يومًا، ثم سار إلى (عنيزة) وحاصرها ستة أيام، إلى أن سلمها حاكمها «محمد بن حسن» على ألا تؤسر الحامية الوهابية، وأن يؤذن لها بالذهاب أنى شاءت، بشرط أن تتخلى عما لديها من الأسلحة والذخائر والمئونة، فرضي إبراهيم باشا بهذه الشروط ودخل المدينة، ثم أرسل كتيبة من الجند لاحتلال (الرس) طبقًا للشروط التي اتفق عليها من قبل.

كان لسقوط (عنيزة) بهذه السرعة أثر كبير في سير القتال؛ لأنها من أهم مواقع نجد؛ فتراجع عبد الله بن سعو إلى (الشقراء)، وأخذ يحصن (الدرعية) مخافة أن تتداعى بتأثير ضربات إبراهيم باشا، وجنحت القبائل في بلاد القصيم إلى التسليم خوفًا من بطش إبراهيم، وأذعنت له.

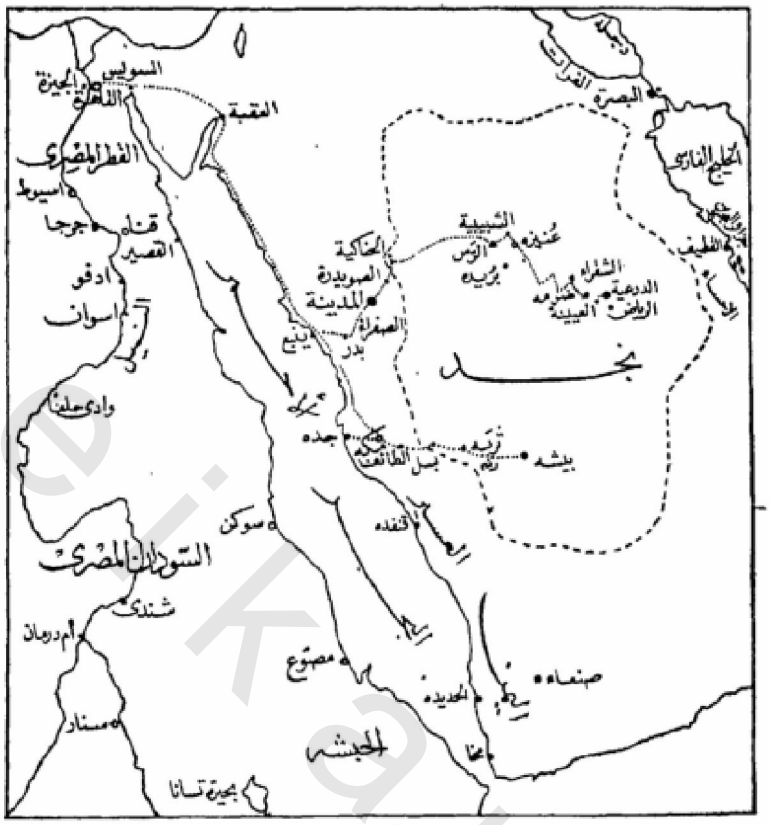

خريطة الحرب الوهابية
وفيها بيان المواقع التي ورد ذكرها في الفصل الخامس

فتح الشقراء (يناير سنة ١٨١٨م)

استأنف إبراهيم باشا الزحف، فاحتل (بُرَيدة) بعد قتال طفيف، وبقي بها شهرين تلقى في خلالها المدد من مصر، ثم سار في (أواخر ديسمبر سنة ١٨١٧م) قاصدًا (الشقراء) -وهي من أمنع بلاد نجد- فوصلها يوم (١٣ يناير سنة ١٨١٨م) وضرب عليها الحصار، وأخذ يشدد في حصارها ويضربها بالمدافع حتى طلب أهلها التسليم، ورضي منهم ألا يأخذ منهم أسرى وأن يؤذن لهم بالذهاب حيث شاءوا على ألا يحملوا السلاح ثانيًا لقتال الجيش المصري، وإذا نقضوا عهدهم استحل دماءهم.

ودخل إبراهيم باشا المدينة دخول الظافر يوم (٢٢ يناير سنة ١٨١٨م).

كان فتح (الشقراء) انتصارًا كبيرًا للجيش المصري لما لموقعها من الشأن والخطر، ولما وصلت إلى مصر أنباء هذا الفتح قوبلت بابتهاج عظيم.

قال الجبرتي في هذا الصدد: «وفي أواخر ربيع الثاني سنة ١٢٣٣هـ (فبراير سنة ١٨١٨م) حضر مبشر من ناحية الديار الحجازية يخبر بنصرة حصلت لإبراهيم باشا، وأنه استولى على بلدة تسمى (الشقراء)، وأن عبد الله بن سعود كان بها فخرج منها هاربًا إلى الدرعية ليلًا، وأن بين عسكر الأتراك والدرعية مسافة يومين. فلما وصل هذا المبشر ضربوا لقدومه مدافع من أبراج القلعة، وذلك وقت الغروب من يوم الأربعاء سادس عشرينه».

فتح الدرعية (سبتمبر سنة ١٨١٨م)

أنشأ إبراهيم باشا في الشقراء مستشفى وترك بها فصيلة من الجنود، وسار قاصدًا (الدرعية) عاصمة الوهابيين، وكانت تبعد عن المدينة المنورة التي اتخذها إبراهيم باشا قاعدة للحركات الحربية بنحو (٤٠٠) ميل، وهذا يدلك على عظم المراحل التي قطعها الجيش في الحرب والقتال.

فعرج في طريقه إلى (الدرعية) على (ضرمة) إذ علم أن بها كثيرًا من المئونة والجياد، فامتنعت عليه، فضربها بالمدافع ودافع حاكمها وأهلها عن مدينتهم دفاعًا شديدًا وقتلوا كثيرًا من المهاجمين، واستمر القتال حتى طلب الحاكم التسليم على أن يخلي البلد، فأخلاها وترك الأهالي هدفًا لبطش الجيش، وأمر إبراهيم باشا بقتلهم عقابًا لهم على ما كبَّدوا الجيش من الخسائر؛ فقتلوا جميعًا.

بقي إبراهيم باشا شهرين في (ضرمة) حيث عاقته الأمطار عن الزحف، ثم غادرها في (٢٢ مارس سنة ١٨١٨م) قاصدًا (الدرعية) عاصمة الوهابيين، فخط

تجاهها يوم (١٦ إبريل) في جيش مؤلف من خمسة آلاف وخمسمائة من المشاة والفرسان باثني عشر مدفعًا.

تتألف (الدرعية) من خمسة أحياء متجاورة، يحيط بكل منها سور، فكانت المدينة محصنة تحصينًا منيعًا وفيها بعض المدافع يستعملها الوهابيون في القتال.

رتب إبراهيم باشا مواقع جنوده وأعد العدة لمهاجمتها، وعاونه في رسم خطط الحصار الضابط الفرنسي الذي يصحبه وهو المسيو «فيسيير» Vaissiere، وبدأ إبراهيم يضرب المدينة بالمدافع، ولكنها امتنعت عليه ودافع عنها الوهابيون دفاع الأبطال، واشترك نساؤهم في القتال فكان دفاعهم مجيدًا.

استمر الحصار أكثر من شهرين والمدينة مستعصية على الجيش المصري، فبدأ مركزه يتحرج، وزاد من حرجه أن الطبيعة أصابت الجيش بنكبة كادت تودي به لولا ثبات إبراهيم باشا وعزيمته الحديدية، فقد هبَّت عاصفة على معسكر الجيش يوم (٢١ يونية ١٨١٨م) أطارت نارًا كان أحد الجنود يوقدها، فاندلعت النار إلى خيمة منصوبة على قرب من مستودع الذخيرة، فاحترقت الخيمة وامتدت نارها إلى المستودع فانفجر لساعته، ونسف الانفجار من القنابل والرصاص ما ذهب بنصف ذخيرة الجيش؛ فذعر الجنود لدويِّ الانفجار ولما أصاب الذخيرة من التدمير، وكادت تحل الهزيمة بالجيش ويختل نظامه، لولا أن قابل إبراهيم باشا تلك الكارثة بالشجاعة والجلد. ومما يؤثر عنه في هذا الموقف أنه قال لمن حوله: «لقد فقدنا كل شيءٍ، ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا، فلنتذرع بها ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض».

وأخذ يشجع الضباط والجنود، وأرسل يطلب الذخيرة من المواقع التي يحتلها الجيش المصري، كالشقراء، وبريدة، وعنيزة، ومكة، والمدينة وينبع.

وعلم الوهابيون بما حل بذخيرة الجيش المصري؛ فقرروا الهجمة عليه لعلهم يأخذونه من ضعف، وهاجموه فعلًا في اليوم التالي؛ ولكن إبراهيم باشا أحكم خطط القتال وأمر جنوده بالاقتصاد في الذخيرة، فردَّ الوهابيين على أعقابهم. واستمرت

الحرب سجالًا إلى أن جاءته الذخيرة فسدَّ بها النقص، وتلقى من أبيه رسالة بأنه ممده بثلاثة آلاف من المقاتلة بقيادة «خليل باشا»، فاعتزم إبراهيم باشا أن يضرب الضربة القاضية قبل أن يتلقى المدد؛ لكي لا يشاركه خليل باشا في فخر الظفر بالوهابية.

رواية الجبرتي

أشار الجبرتي إلى تلك الحوادث بقوله:

«وفي منتصفه (رمضان سنة ١٢٣٣هـ- يوليو سنة ١٨١٨م) وصل نجَّاب وأخبر بأن إبراهيم باشا ركب إلى جهة من نواحي الدرعية لأمر يبتغيه، وترك عرضيه (جيشه) فاغتنم الوهابية غيابه وكبسوا على العرضي على حين غفلة وقتلوا من العساكر عدة وافرة، وأحرقوا الجبخانة (الذخيرة)، فعند ذلك قوي الاهتمام وارتحل جملة من العساكر في دفعات ثلاث برًّا وبحرًا يتلو بعضهم بعضًا في شعبان ورمضان، وبرز عرضي (جيش) خليل باشا إلى خارج باب النصر».

وقال في حوادث شوال من تلك السنة: «وفي ثامنة ارتحل خليل باشا مسافرًا إلى الحجاز من القلزم وعساكره الخيالة على طريق البر». ومعنى هذا أن المشاة ذهبوا من السويس بحرًا وسار الفرسان برًّا من طريق برزخ السويس إلى الحجاز. فتأمل عظم المراحل التي كان يقطعها الجنود والمتاعب الهائلة التي كانوا يتكبدونها في تلك الحرب الشاقة.

قلنا: إن إبراهيم باشا اعتزم أن يضرب الدرعية الضربة القاضية، فوجه قواته إلى كل حي من أحيائها، واحدًا إثر آخر، فاستولى على الأول، ثم على الثاني، ثم على الثالث، وبذلك ضاق الخناق على الوهابيين، وكان الحصار قد دام خمسة أشهر، فرأى عبد الله بن سعود أن ليس في مقدوره المقاومة بعد أن فدحته الخسائر ونالته الأوصاب من طول الحصار وأهواله، فجنح إلى الصلح والتسليم، وأرسل يوم (٩ سبتمبر سنة ١٨١٨م) رسولًا إلى إبراهيم باشا يطلب وقف القتال حتى يتم الاتفاق على الصلح.

فابتهج إبراهيم باشا لهذه الرسالة ابتهاجًا عظيمًا، وأذن بوقف القتال، ثم جاء عبد الله بن سعود بنفسه إلى معسكر إبراهيم باشا، فتلقاه القائد العظيم بالحفاوة والإكرام، وتم الاتفاق بينهما على أن تسلم (الدرعية) إلى البطل إبراهيم، وأن يتعهد بالإبقاء عليها، وألا يوقع بالوهابيين أو ينالهم بضرر، وأن يذهب عبد الله بن سعود إلى مصر، ثم إلى الأستانة كما هي رغبة السلطان، فرضي عبد الله بن سعود بهذه الشروط، واستولى الجيش المصري على الدرعية بعد حصار دام نحو ستة أشهر، وبعد فتح الدرعية لم تلبث المدن الباقية من نجد أن سلمت وخضعت لقائد الجيش المظفر.

كان محمد علي في خلال تلك الوقائع قلقًا على مصير الحملة التي يقودها ابنه في فيافي نجد ووهادها، وتأخرت عنه أخبارها، فاشتدت هواجسه ومرض بعينه وطلب من العلماء أن يقرءوا البخاري ويتوجهوا إلى الله بدعواتهم مبتهلين أن ينصر جيشه. **قال الجبرتي** في حوادث رمضان سنة ١٢٣٣هـ (يوليو سنة ١٨١٨م): «وانقضى شهر الصوم والباشا متكدر الخاطر ومتقلق ومنتظر ورود خبر يسر بسماعه».

إلى أن جاءته البشرى بانتصار إبراهيم باشا ودخوله الدرعية، فابتهج لهذه البشرى أيما ابتهاج، وأطلقت المدافع من القلعة يوم (٢٨ أكتوبر سنة ١٨١٨م) إعلانًا لهذا النصر المبين.

انتهاء الحرب الوهابية

انتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصري وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب، وكانت هذه الحرب من أشق حروب مصر في عهد محمد علي وأكثرها ضحايا وأعظمها نفقات، وقد تخللتها هزائم ومواقف عصيبة كادت تقضي على الحملة المصرية؛ فإن الجيوش التي جردها محمد علي استهدفت للخطر في مواطن عدة وخاصة في هزيمة (الصفراء) الأولى، وحصار (الرس) عندما استعصت على إبراهيم باشا، وفي حصار الدرعية، وعندما التهمت النار ذخائر الحملة تحت أسوارها. ففي

تلك المرات الأربع كادت الحملة المصرية تقع في الأسر لولا أن القيادة الوهابية كان يعوزها الحزم والكفاية والنظام.

ومن الأسباب التي أدت إلى اضمحلال قوة الوهابية ضعف عبد الله بن سعود، والأموال التي بذلها طوسون وإبراهيم ومحمد علي واشتروا ذمم البدو؛ فإن القبائل التي انحازت إلى جانب الجيش المصري قد عاونته معاونة كبيرة، ولولا ذلك لكانت مواصلاته عرضة للانقطاع، ولما استطاع أن يقطع تلك المراحل الشاقة في بلاد مقفرة. أضف إلى ذلك أن عزيمة محمد علي وإبراهيم، وما احتمله الجيش المصري من الصبر على المشاق والأهوال. كل ذلك كان له الفضل الأكبر في ما أدركه من الفوز، وبفضل تلك التضحيات الجسيمة أمكن مصر أن تبسط نفوذها في مفاوز جزيرة العرب تلك التي يصعب على أي دولة أن تخضعها، وقد ظل هذا النفوذ مبسوطًا على أنحائها إلى أن تقلص ظله في أواخر عهد محمد علي كما سيجيء بيانه.

الحفلات الحربية في عهد محمد علي

كان للأنباء التي جاءت بفتح الدرعية وانتهاء الحرب الوهابية أثر ابتهاج عظيم في مصر، وقوبلت باحتفالات بالغة وصفها الجبرتي بقوله:

«في سابع ذي الحجة سنة ١٢٣٣هـ (أكتوبر سنة ١٨١٨م) وردت بشائر من شرق الحجاز بمراسلة من «عثمان أغا الورداني» أمير الينبع بأن إبراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية، فانسرَّ الباشا لهذا الخبر سرورًا عظيمًا، وانجلى عنه الضجر والقلق، وأنعم على المبشر، وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش. وفي ثاني عشر وصل المرسوم بمكاتبات من السويس والينبع، وذلك قبيل العصر، فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة، واستمر الضرب من العصر إلى المغرب بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع، وصادف ذلك شنك أيام العيد، وعند ذلك أمر بعمل مهرجان

وزينة داخل المدينة وخارجها وبولاق ومصر القديمة والجيزة، وشنك على بحر النيل تجاه الترسانة ببولاق».

وتجددت الحفلات في شهر محرم سنة ١٢٣٤هـ (نوفمبر سنة ١٨١٨م) لمناسبة ورود تفاصيل الانتصارات التي نالها إبراهيم باشا. وأسهب الجبرتي في وصف تلك الحفلات؛ مما يدلك على فخامتها وبهائها.

فقد نودي بزينة المدينة سبعة أيام، ونصبت السرادقات خارج باب النصر، ومن بينها سرادق محمد علي باشا وباقي الأمراء لمشاهدة الحفلات، وهي مناورات حربية تتخللها حركات فروسية قام بها الخيالة والمشاة، واقترنت بإطلاق المدافع بكثرة هائلة «بحيث يتخيل الإنسان أصواتها مع أصوات بنادق الخيالة المترامحين رعودًا هائلة». وفي الليل كانت توقد المصابيح والمشاعل، وتطلق السواريخ والحراقات، وتضرب المدافع.

وبعد انقضاء السبعة الأيام أعدت حفلات أخرى في جهة بولاق تختلف في نظامها وأوضاعها عن حفلات باب النصر؛ فهذه كانت برية، أمَّا حفلات بولاق فكان ميدانها النيل وشاطئيه، ولعلها لذلك كانت أبدع وأروع، فقد استؤجرت الأماكن المطلة على البحر بأجور مرتفعة لتزاحم الناس على مشاهدتها واستجلاء مناظرها، وكان قوام الحفلات مناورات بحرية تقوم بها السفن والمراكب تمثل فيها المعارك البحرية، ولبست بولاق حلة من الرونق والبهاء، وأقبل الناس من كل صوب لمشاهدة معالم الزينة «وزين أهالي بولاق أسواقهم وحوانيتهم وأبواب دورهم، ودقت الطبول والمزامير والنقرازانات في السفائن وغيرها، وطبلخانة (موسيقى) الباشا تضرب في كل وقت، والمدافع الكثيرة تضرب في ضحوة كل يوم وعصره وبعد العشاء، وتوقد المشاعل وتعمل أصناف كل الحراقات والسواريخ والنفوط، وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين».

ولعلك تلحظ من التأمل في وصف الجبرتي لهذه الحفلات أنها فاقت في جلالها وفخامتها كل ما تقدمها من الحفلات في مختلف المناسبات، ولم نجد فيما وصفه بعد ذلك من الحفلات لغاية انتهاء كتابه (سنة ١٨٢١م) ما يدانيها في الروعة والبهاء، وهذا يدلك على عظم تقدير الشعب للانتصارات الحربية وما تستثيره في النفوس من روح الفخر والعزة. ولا جرم أن الحفلات الحربية هي مظهر من مظاهر تقدم الشعوب وتقديرها لمفاخرها القومية وتكريم الفضائل والأخلاق الحربية، فالحفلات التي وصفها الجبرتي تنطوي على هذه المعاني السامية، وليس عجبًا أن تحتفل مصر بفتح الدرعية؛ فإن فتحها هو أعظم انتصار نالته في أول حرب خارجية خاضت غمارها في تاريخها الحديث، فالدرعية هي عاصمة الوهابيين، وبفتحها توجت حرب شاقة دامت سبع سنوات وكللت بالنصر والظفر.

مقتل عبد الله بن سعود

جاء عبد الله بن سعود إلى مصر أسيرًا، فنزل القاهرة يوم (١٦ نوفمبر سنة ١٨١٨م) وتلقاه محمد علي في قصره بـ«شبرا»، فأكرم مثواه، ثم أمر برحيله إلى الأستانة، فوصلها وهناك قُتل بأمر السلطان.

تخريب الدرعية

لم يفِ محمد علي بعهود ابنه إبراهيم في شروط الصلح، فأرسل إليه قبل مغادرته الحجاز يأمره بهدم حصون الدرعية وأسوارها وتخريب منازلها، وأن يرسل إلى القاهرة إخوة عبد الله بن سعود؛ فنزل إبراهيمُ على أمر أبيه وأرسل إخوة ابن سعود وخرَّب الدرعية وأحرقها.

عودة إبراهيم باشا إلى مصر

بقي إبراهيم باشا بعد سقوط (الدرعية) يوطد نفوذه في تلك الأصقاع، وظل كذلك إلى أن اعتزم العودة إلى مصر، فرجع من طريق القصير فـقنا، وانحدر في النيل

حتى بلغ الجيزة يوم (٩ ديسمبر سنة ١٨١٩م)، وقابل والده في قصره بـ«شبرا»، فضمه إلى صدره مفتخرًا بابنه العظيم، ثم دخل إبراهيم القاهرة من باب النصر في اليوم التالي دخولَ الظافر، وشق المدينة من باب النصر إلى القلعة في موكب مهيب، واحتشدت الجماهير لمشاهدته وتحيته، وجاء محمد علي إلى مسجد الغوري وشاهد موكب ابنه أثناء مسيره، ولما بلغ إبراهيم باشا القلعة استأنف سيره في موكبه إلى مصر القديمة، وقصد من هناك إلى قصره بجزيرة الروضة، وزينت المدينة ابتهاجًا برجوع القائد الكبير، وظلت في أفراح وزينات سبعة أيام متواليات، أو كما **يقول الجبرتي:** «استمرت الزينة والوقود والسهر بالليل، وعمل الحراقات، وضرب المدافع في كل وقت من القلعة، والمغاني والملاعب في مجامع الناس سبعة أيام بلياليها، في مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الأخطاط».

فتح سيوه (فبراير سنة ١٨٢٠م)

كان محمد علي لا يفتأ يعمل لتوسيع تخوم الديار المصرية إلى حدودها الطبيعية؛ فمن ذلك أنه جهز تجريدة من (١٣٠٠) جندي بقيادة «حسن بك الشماشرجي» لفتح واحة سيوه، فسار إليها حسن بك يقود هذه الحملة، ونشب قتال بينه وبين أهلها دام ثلاث ساعات، وانتهى بهزيمة الأهلين وخضوعهم وطلبهم الأمان واعترافهم بالطاعة والولاء للحكومة المصرية (فبراير سنة ١٨٢٠م)، وانضمت هذه المنطقة من ذلك الحين إلى حظيرة الوطن، وقد أبدى حسن بك الشماشرجي في تلك الحملة حزمًا ودراية.

ومما هو جدير بالملاحظة أن فتح سيوه وقع في أوائل سنة (١٨٢٠م) أي قبيل الحملة التي جردها محمد علي لفتح السودان. وأغلب الظن أنه أراد أن يأمِّن على حدود مصر الغربية قبل الزحف جنوبًا.

وقد انتظمت شئون سيوه في عهد الحكم المصري، وقصدها رواد الاكتشاف وجابوا أنحاءها لتعرف أحوالها واكتشاف آثارها، وعاونهم «حسن بك الشماشرجي»

في مهمتهم، ومن هؤلاء المسيو «لينان دي بلفون» Linant de Bellefonds كبير مهندسي محمد علي، والمسيو «دروفتي» Drovetiti قنصل فرنسا العام في مصر، والمسيو «ريتشي» Ricci من أطباء إيطاليا وغيرهم، فكان الفتح المصري ممهد السبيل للفتح العلمي والحضارة.

obeikan.com